ثلاث طلقات

طلقات متتالية.. ودخان متصاعد لا ينقشع.. ضبابية وألم يعتصرني.. يعتصرني بشدة.. خرجت هربًا منه، ثم توقفت.

هل للمكان قيمة إذا ما اعتصرنا الألم؟ كمَن فُتحت له بوابة الزمان لينفذ منها!

توقفت.. لا لأبحث عن إجابة؛ بل لأنَّ الكابوس المزعج يهزني.. وتلك الأصوات من حولي تؤرقني.. تتداخل وتتعالى.. بعضها كلمات.. والآخر صرخات وبكاء.

أحدهم يدفعني في ظهري.. تجاهلته.. ثوانٍ ودفعني مرة أخرى، اعتدلت بظهري ولمْ أعره اهتمامًا.. أليس كل ما يحدُث لنا لا يستحق الاهتمام؟! بعض الأحداث وقودها مصطنع، والرد عليها بالتجاهل هو الحل.. حدَّثت نفسي بذلك، وفي ذات اللحظة توالت الدفعات، لحظَتها أدركت أنَّه لم يكن يريد أنْ يحركني ويدفعني.. بل يريد إسقاطي.. وقبل أنْ ألتفت إليه لأعرفه.. سَقَطْتُ بسرعة رغمًا عني، مذعنة مضطرة، وبقوة الإندفاع أحسست بلسعة برد جارفة.. سرعتي على هذا المنحدَر كانت

عالية.. سَقَطْتُ على الغطاء الأسود العريض.. أعرِفه، سَقَطْتُ وحولي العشرات مثلي، كالساقطون من سفينة تغرق وسط المحيط.. يقتربون بعضهم من بعض في لحظة فيصلية، فهل وجودنا بين الآخرين في لحظة كتلك كافيًا لينجينا؟! أسئلة تتآكلني كثيرة.

تتبعت الغطاء وسط الضوضاء.. حتى وصلت لإحداهن قريبة، كلمَّا اقتربت منها أحسست بالراحة، فابتسمتُ.. صاحتْ في:

ـ أتبتسمين؟ ألا تدركين ما أنتِ فيه؟

صمتّ، فاسترسلت:

ـ هذا رثاء.

نَظَرْتُ لها باستغراب، فتابعت:

ـ عيناها ألقتنا حبًا ورثاءً، فصغيرها ووليد قلبها اليوم مات.

ومع صمتي المستمر، ظهر لها جهلي بما تقول، فأكملت باقتضاب:

ـ زياد.. بطل شهيد بإذن الله، طالته يد الغدر في سيناء، تُوفي وهو في ريعان الشباب حاميًا لموقعه الحدوديّ ضد الأعداء، قاتَل البطل، ودافع عن نفسه وزملائه، حتى نفذت منه الذخيرة.. وسقط شهيدًا.. بثلاث طلقات

ساد الصمت بيننا.. وأنا أحاول استجماع الأفكار:

ـ لكنَّني لستُ للحزن؟!

ـ ماهذا الالتباس؟!

نظرت للجميع فوجدتهن يشْبهنها، وأنا الوحيدة بتركيبة فريدة، كنت أنظر إليهن مذهولة، فإذا بِارْتِطَام قوي يضربني.. ترنحت من شدة الارْتِطَامِ، والتصقت أكثر بالغطاء، دارتْ حولي الأشياء، وفقدت الاتِّزَانَ..

فلمَّا هدأت موجة الاهتزاز تطلعت لمصدر الارْتِطَامِ، فإذا بدمعة تشْبهني ملتصقة بظهري.. قلتُ لها:

ـ من أنتِ؟

أجابت:

ـ مثلك.

قلت لها:

ـ من أي نوع؟

أجابت:

ـ فخر واعتزاز.

ابتسمتُ لها.. فاستطردت:

ـ أنتِ أولنا والأخريات قادمات.. نسقط الليلة على شهيد السماء.